

مشر مقابل نصفها في عدوة الأندلس و 17 حماما
موض سنة و 96 كتابا قرانيا بدل 24 وست مدارس
بدل الثنتين (5) .

هذا وان جامع القرويين الذي اسى عام
245 هـ مع شبيهه جامع الأندلس على يد ام البنين
واختها مريم الفهرية القيروانيين لم يكن يثير الانتباه
بفن جديد نظرا لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين
هذا نصيحه الغريب الذي تتوازي بلاطه مع القبلة
على فرار مسجد الشرفاء الأديسي وجامع ابن
طولون بالقاهرة وجامع بعلبك ودمشق وقد اضاف
اليه الناصر الأموي عام 345 اي بعد مرور قرن كامل
على بنائه انني مشر بلاطا جديدا وحول المنارة الى
مكانها الحالي مفضيا بابها «بصفايح النحاس الأصفر»
مع «قبة صغيرة» محلاة بتفافيح موهة بالذهب» (6)
وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي
البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة
حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي
ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت فيه الفلاحة
والصناعة والتجارة والفنون والعلوم (7) بالأندلس
كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية
التي بدأت تتخذ بالعاصمة الأديسية سمات جديدة
في شتى المجالات ، تقل مع ذلك روعة وفخامة من

اصولها بقرطبة اذا اعتبرنا المسافات الاموية بجامع
القرويين وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر
أديسية كالبصرة واصيلا أصبحت تنافس مدينة
فاس .

ومن الصعب ان نتعرف على العناصر الحضارية
والمصطلحات التي تسربت الى فاس في القرن
الثالث الهجري وان كنا نعرف مما كتبه مؤرخون
عرب ايشال الحميدي صاحب جلدوة المتبسي
وابن غالب صاحب فرحة الأنفس والروض المطار
للحميري ونفع الطيب للمقري الكثير من ذلك بالنسبة
للأندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الإدارة
والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة
والاجتماع وال عمران واول ما يبده الباحث حتى
بالنسبة للامويين هو امتزاج العناصر الحضارية
بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط
حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط
كالجامع والصدقات والامشار والاموال المرسومة على
المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيع
الاسواق والمكوس والشرف (8) او الامين ودار
السكة وخزانة الطب والحكمة واذا ما حاولنا ان
تقارن بين مصطلحات هذا العصر والتماير المغربية
دون تحديد لاطارها الزمني فاننا نلاحظ ان اغلبها

(5) ذكر ليفي بروفنسال ان الأندلسيين نقلوا معهم الى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة
الحضرية كالبناى والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية (Fès avant le Protectorat) وقد لاحظ
لوطورنو من (205) انه اذا كان العرب قد نقلوا الى فاس مظاهر نبلهم فان الأندلسيين قد نقلوا
رقنهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم « وقد اعطانا الاستاذ حسن حسني
ميد الوهاب في كتابه « بساط المقيي » صورة من حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها
(يوجد شبهه بفاس وهو سماط المدول الا انه اصفر منه) وحماماتها العمومية (49حماما) ومصانع
الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص رغم اصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار
الطراز وكان قاضي القيروان شيخا للاسلام في تونس او قاضيا للجماعة كما في فاس وقد لاحظ
الاستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية ان الطبقة المتعدنة الفنية من الأندلسيين قد نزلت مدينة
تونس واختلطت باهلها وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع من الموحدين . وقد ذكر المقري من
ابن غالب (نفع الطيب ج 2 ص 764) ان اهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع الريقية فعال
اهل البادية الى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وخرسوا الاشجار واحدثوا الارحى الطاحنة بالماء
وعلموا اهل البادية اشياء جديدة .

ومعلوم ان الأندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم -حسب سرفانطيس مؤلف دون كيشوط - تجارة
الاغذية ويضمون يدهم على الحاصيل عند نضجها وهم لا يشترون العقارات حفاظا على حرية
دواج اموالهم .

(6) زهرة الآس ص 37

(7) ابن حوقل - طبعة Goege ج 2 ص 77

(8) هذه الكلمة معناها امين المال وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس ص 82) .

اضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بتميره المصنوع من « الصندل والابنوس والعناب والماج » (13) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كنموذج للفن في اروع مجاليه .
وهكذا فالنقطة الاندلسيون الذين انتقلوا الى المغرب في العصر المرابطي كانوا اذن اكثر اختصاصا من سلفهم وان كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية لان بداوة اللثمين وتقسفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة واشبيلية كموسيقى زرباب الذي احدث في الاندلس ثورة جذرية في العادات فكان بحق « مشرع اسبانيا العربية » ، كما يقول دوزي - وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع رغم سفورها (14) لم تفتح للشقافة عدا القليلات امثال زينب النفراوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدة فانو وام هانيه بنت القاضي عبد الحق بن عطية وحفصة الركونية استاذة نساء دار المنصور (15) بل استاذة عصرها (16) وام عمر وبنت ابي مروان بن زهر طيبة النساء في البلاط الموحدوي وورقاء الفاسية الادبية الشامرة (17) وزينب القرقولية استاذة القراءات السبع بمراكش والفمات وزينب بنت يوسف ابن عبد المومن التي ربيت بالاندلس فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشعوف في المجتمع وازاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب كانت نساء غرناطة يشهدون الحفلات العامة سافرات ويسفن بوجودهن عليها روعة وسحرا وبشمتن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية ، كما كان بالربض الشرقي لقرطبة وحده مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر اشكالا خاصة بالمغرب غير ان الموحدين قفزوا بالفن الى مستويات راقية بالرغم مما ابدوه في البداية من روح التزم

مقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البيان وصاحب البيازرة والاسجال الخراجية وصاحب القطوع (اي الجبايات المرسومة على الاقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور المجندة والجند المتدون (اي المسجل في الديوان) ونحص السرادق (اي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعث العسكرية وعقد الالوية) والمهرجان (عيد موسمي منه المنصورة التي تعرف بالمغرب) على ان معظم اسماء الحرف موحدة وكذلك اسماء الازهار والاشباب والمصنوعات اليدوية وغيرها (9) واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور ابن ابي عامر الى ان اصبحت الاندلس جزءا من العدة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استمدى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لاقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس (10) ودار الامة بمراكش بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الاندلس لمد قنطرة تسيقت (11) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش (12) وكان لوحدة افريقية والمغرب الاقصى حينئذ اثرها في ضم الآثار القيروانية الى المدد الاندلسي غير ان من الصعب تمييز الاثرين بوضوح لان جامع القرويين نفسه دخلت فيه مواد اندلسية كالمرمر والاجر والجبس عند تجديده على يد محمد ابن حمدون الاندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون اقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر ايام علي بن يوسف بايعاز من ابن رشد الاندلسي واذا اردنا دليلا على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستسافتهم للفن واساليبه ومصطلحاته فان ذلك يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي

(9) راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 3 بكتابنا الصادر في الموضوع والذي نشره معهد البحوث والدراسات العربية بعنوان : (تطور الفكر والحضارة في المغرب الحديث (1969) .

(10) زهرة الاس ص 87 وجذوة الاقتباس ص 27 .

(11) الادريسي - مقتطفات من النزهة - طبع الجزائر 1957 ص 69

(12) الاستبصار - ترجمة Fagnan ص 179

(13) زهرة الاس ص 42

(14) حتى الاميرات لم يكن يتحجبن مما حدا المهدي بن تومرت الى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسيا .

(15) الدر المنثور في طبقات ربات الخلدور ص 165

(16) الاحاطة لابن الخطيب

(17) جذوة الاقتباس ص 335